المحاضرة02: تطور المسرح الجزائري.

تمهيد:

تعود الإرهاصات الأولى للمسرح الجزائري إلى بداية القرن العشرين، وإن كان البعض يرجعها إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر حين ظهر مسرح الظل والقراقوز حيث يذكر الرحالة الألماني "مالستان" أنه «شاهد هذا المسرح في قسنطينة عام 1862م، وأن "دوشين" هو الآخر شاهد قبل هذا التاريخ مسرح القراقوز، وذلك عام 1847م»[i]، ولكون هذا الشكل المسرحي كان ينتقد الوجود الاستعماري في الجزائر، فقد منع خوفا من أن يصبح أداة للثورة، إضافة إلى مسرح الحلقة والفرج الشعبية في صورتها البدائية التي سبقت الميلاد الحقيقي للفن المسرحي الجزائري، والذي اكتسب نهضته الأدبية بعد جملة مراحل تعاقب عليها.

أولا - نهضة المسرح الجزائري.

1- مرحلة المسرح الفرنسي:

بدأت هذه المرحلة مع الاحتلال الفرنسي في العقد الثالث من القرن التاسع عشر الميلادي، وتميزت بالبطش والعنف والرفض والمقاومة الشديدة من لدن الشعب الجزائري، فهي مرحلة ثورية رافضة للمستعمر الدخيل، الذي عبأ في حملته كل ما يملك من وسائل الاحتلال للقضاء على المقاومة، واستباحة المدن ومصادرة الأراضي، والقضاء على كل السمات الحضارية والثقافية للشعب الجزائري، ومحاربة كل العادات والتقاليد الشعبية التي تعبر عن الهوية الجزائرية.

لقد حملت الحملة الفرنسية على الجزائر من ضمن ما حملت الكتب والمفكرين والعلماء والأدباء والفنانين والصحافيين... وغيرهم، كما حاول القادة الفرنسيون إصباغ حياة المجتمع الجزائري بصبغة الأوروبيين، فأنشأوا المطاعم والملاهي والقصور، ووفروا للسكان الجدد قاعات للمطالعة وإصدارات للجرائد ومطابع واستقدموا فرقا مسرحية لتقدم عروضا.[ii]

وأنشأوا مسرحا يعبر عن حياتهم وبيئتهم حتى قيل «إن المسرح يسير معهم حينما ذهبوا، فهم يحيون المسرح بمختلف أنواعه، ويعتبرونه لازمة من لازمات حياتهم الاجتماعية... وكانت مسرحياتهم الأولى تحمل أسماء من الواقع الاجتماعي الجزائري مثل: العربي والبدوي والبربري والمزابي واليهودي وسالم والتومي وبابا عروج وخالد، ثم أسماء نسائية مثل عائشة واليهودية والكاهنة بالإضافة إلى أسماء محمد وقدور وعيسى.[iii]

لقد أوحت الجزائر للكتاب المسرحيين الفرنسيين بما لا يقل عن ثلاثة وأربعين مسرحية، مما جعل القوات الاستعمارية تفكر في بناء مسارح بلدية في المدن الجزائرية الكبرى المحتلة، كالعاصمة ووهران وقسنطينة وعنابة وسطيف وباتنة وسكيكدة.. الخ، وتم تقديم عروض مسرحية* داخل هذه المسارح، أضف إلى هذا بناء مسرح "دار الأوبرا"* سنة 1880، والمسرح الكبير أو "الامبريالي" بالعاصمة[iv]، والحقيقة أن جل العروض المسرحية المقدمة في هذه الفترة مرتبطة بالزمن الذي مثلت فيه، غرضها التشهير والإعلام حول الاحتلال الفرنسي للجزائر، والتقرب من

الشعب الجزائري واغرائه بالحضارة الفرنسية، والمقابل القضاء على الثقافة العربية والهوية الجزائرية وفصلها عن جذورها.

2- مرحلة المسرح العربي:

في الفترة التي كانت النهضة العربية الثقافية تنتعش في الشرق العربي، وتشق طريقها بقوة وثبات، وكان المسرح يبذر بذوره الأولى على يد مارون النقاش وغيره، كانت الجزائر تخوض حربا ضروسا ضد الاستعمار الفرنسي، ولعل أول انتفاضة مسرحية بالجزائر في العصر الحديث، كانت سنة 1921 حين قدم جورج أبيض مع فرقته إلى الجزائر،[v] ضمن جولة قامت بها فرقته في ذلك العام في الشمال الإفريقي بدأت بليبيا وانتهت في المغرب.

وقدمت فرقة الممثل العربي مسرحيتين تاريخيتين كتبتا باللغة الفصحى، هما "صلاح الدين الأيوبي" و"ثارات العرب" لجورج حداد، ولقد عزف الجمهور الجزائري عن مشاهدتهما، فلم تلق من النجاح مالقيته في سائر بلاد الشمال الإفريقي وذلك لأن صفوة المثقفين الجزائريين كانوا وقت ذاك يتوجهون بفكرهم وأرواحهم نحو فرنسا[vi]، وكذلك «لضعف مستوى الجزائريين اللغوي، وضعف العربية الفصحى على ألسنتهم»[vii]، فلم يجدوا متعة في مسرحيات تعرض باللغة العربية الفصحى.

وهناك رأي آخر يقول بأن الجزائر عرفت المسرح العربي قبل تاريخ 1921م، وذلك في بداية القرن العشرين عندما قدمت إلى الجزائر فرقة سليمان القرداحي سنة 1908م، فبفضل «نفس ظاهرة التثاقف، عرف المغرب العربي بعد 60 عاما الظاهرة المسرحية بلغته الأم، إذ قررت فرقة مسرحية مصرية بقيادة القرداحي، في هذا التاريخ 1908م، القيام بأول جولة مسرحية، حيث وصلت إلى تونس أين قدمت عروضها بنجاح كبير وواصلت طريقها بعد ذلك في اتجاه الجزائر»[viii]

مهما يكن أي الفرقتين سابقة للأخرى في نقل المسرح العربي إلى الجزائر، فإنما لم تكن إلا الشرارة التي دفعت الجزائريين قدما إلى ممارسة المسرح والإبداع فيه، حيث كانت استجابتهم ممثلة في تأسيس «أول فرقة مسرحية في الجزائر سنة 1921م، هذه الفرقة هي: المهذبية جمعية الآداب والتمثيل العربي، إضافة إلى فرقة جمعية الطلبة المسلمين، وجمعية الموسيقى المتربية»[ix]، بمعنى أن إقبال المثقفين الجزائريين على المسرح وتأسيس الفرق المسرحية، كان في السنة نفسها التي غادر فيها جورج أبيض أرض الجزائر، وهذا يؤكد أن المسرح الجزائري في نهضته كان متأثرا بالمشارقة وليس بالغرب.

3- مسرح الحركات الثقافية:

انطلق كثير من العلماء والمفكرين الجزائريين مندفعين لحماية اللغة العربية من التيارات الغربية وحملات الدعاية الفرنسية الساعية إلى تغريب العقل الجزائري وتحطيم أركانه، فأنشأوا الجمعيات والنوادي الفكرية والفرق الفنية ذات الصبغة الثقافية والترفيهية، فقد ظهرت الجمعيات وأسست النوادي الفكرية،[x] التي كان لها الدور الكبير في نشر مظاهر الثقافة العربية بقراءة الأشعار وإلقاء المحاضرات وإقامة الندوات المنوعة.

ويرى بعض الدارسين أن الحركة المسرحية لهذه الفرق والنوادي قد بدأت سنة 1911م، «ومن بين الذين لهم الأثر الفعال والايجابي في إرساء تقاليد مسرحية بالجزائر –الأمير خالد- الذي كانت كل اهتماماته وانشغالاته منصبة وقتئذ حول استغلال كل القنوات الممكنة، لرفع صوت الأمة الجزائرية في المحافل الدولية وإلحاقها بالركب الحضاري ثقافيا»[xi]، ولعل وجوده في فرنسا للدراسة، مكنه من الاطلاع على أهمية المسرح في إيقاظ الأمة، فقد طلب من"جورج أبيض" حين التقاه في باريس سنة 1910م أن يبعث له ببعض المسرحيات لتمثيلها في الجزائر.

وكان له ذلك سنة 1911م حيث بعث له عدة مسرحيات بعد عودته إلى القاهرة منها: مسرحية ما كبث لشكسبير التي عربها محمد عفت المصري، ومسرحية المروءة والوفاء لخليل اليازجي، ومسرحية شهيد بيروت لحافظ إبراهيم، ثم أسس في السنة نفسها ثلاث جمعيات فنية*، قامت بتقديم عروض مسرحية ونشاطات طوال السنوات اللاحقة حتى قيام الحرب العالمية الأولى، واللافت للنظر أن نشاط هذه الجمعيات كان سياسيا بالدرجة الأولى نشاط تحمس له الشباب الجزائري الواعي لظروفه وأحواله[xii]، وعليه فإن نهضة المسرح الجزائري خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين من قبل الكتاب الفرنسيين، والكتاب الجزائريين والفرق والمسرحية التي ظهرت كانت كلها بلا شك لبنات في بناء صرح المسرح الحديث في الجزائر.

ثانيا- بداية المسرح الجزائري المعاصر:

عرف المسرح الجزائري يقظة حقيقة بعد الحرب العالمية الأولى، فمنذ سنة 1926م ظهر شكل يختلف عن الأول، فبعد قدوم فرقة "جورج أبيض" إلى الجزائر وبعد تأسيس الفرق المسرحية الجزائرية، قدمت فرقة "المهذبية جمعية الآداب والتمثيل العربي" ثلاث مسرحيات من تأليف رئيسها علي الشريف الطاهر «الذي يعد أول مؤلف مسرحي جزائري في عصر النهضة، و هذه المسرحيات هي "الشفاء بعد العناء" في فصل واحد سنة 1921، و"قاضي الغرام" في أربعة فصول سنة 1922م، ومسرحية "بديع" في ثلاثة فصول سنة 1924»[xiii].

وكان أبرز ذلك التحول هو «استعمال العربية الدارجة في الحوار بدل اللغة الفصحى، والتحول من الدراما الاجتماعية الجادة إلى الكوميديا، وأيضا الجمع بين التمثيل والموسيقى والغناء والرقص أحيانا»[xiv]، ويعزى ذلك إلى الأسلوب الشعبي الجزائري الخالص، والمتمثل في الحياة الشعبية البسيطة بطبقاتها الفقيرة والمعدمة، والتي ترتكز على الغناء والطرب والفكاهة.

ومن أشهر رجال المسرح في هذه الفترة "علالو" و"دحمون"اللذان كرسا جهودهما لإقامة الركائز الأولى للمسرح العربي في الجزائر، وكذلك "رشيد القسنطيني ومحي الدين باشطارزي، وكان لكل واحد منهم دور أساسي في تطوير المسرح الجزائري، فعلالو مثلا كان له السبق في عرض مسرحيته "جحا"، التي يعلق عليها باشطارزي قائلا «إن هذه المسرحية –جحا- التي مثلت باللهجة العامية مكنتنا من تحقيق شوط كبير في مجال استقطاب الجمهور، ومن ثم فإنني اعتبر علالو ابتداء من هذا التاريخ -1926- مؤسس المسرح الجزائري»[xv].

لقد عرف "علالو"من خلال هذه المسرحية كيف يستقطب ، ويعالج قضايا عصره باللغة التي يفهمها، ثم كتب عدة مسرحيات منها "عنتر الحشايشي" وزواج بوعقلين"و أبو الحسن أو النائم اليقظان" و"حلاق غرناطة"

واستمرت عطاءاته إلى سنة 1932 أين توقفت، وذلك راجع إلى القانون الذي كان يمنع الجمع بين وظيفتين في آن واحد... فقرر حينئذ الانقطاع عن المسرح، لأنه لا يستطيع أن يعيش من المسرح وحده[xvi].

وفي الثلاثينيات عرف المسرح الجزائري عصرا ذهبيا على يد رشيد قسنطيني الذي كان أول من أدخل فكرة الأداء المرتجل إلى المسرح الجزائري، حيث ألف أكثر من مائة مسرحية واسكاتش، وقرابة ألف أغنية، وكثيرا ما كان يرتجل التمثيل حسبما يلهمه الخيال، بعدما اكتفى في مراحله الأولى بالتمثيل وكان يقدم مسرحيات نقدية ساخرة وذلك في أسلوب يحاكي أسلوب الكوميديا الإيطالية المرتجلة من استخدام الحدث المليء بالمفاجآت المثيرة للضحك.

وفي هذه الفترة أيضا ظهر محي الدين باشترزي الذي زاول الإنشاد الديني في شبابه، ثم تحول إلى الغناء واشتغل مدرسا للموسيقى، ثم اتجه إلى المسرح وألف حوالي ثماني منى أشهر مسرحياته هي: فاقو، من أجل الشرف، النساء، تشيك تشوك، دار المهابيل، الراقد، البنت الوحشية، ما ينفع غير الصح... الخ[xvii]، وما يسجل على مسرحيات هذه الفترة أنها تعتمد الاقتباس أو "الجزأرة" أي التحويل إلى اللهجة الجزائرية.

ومع بدأ الثورة المسلحة ظهرت عدة فرق منها فرقة "الموسيقى العربية" ومديرها محي الدين باشترزي التي قدمت مسرحيات "لرشيد القسنطيني" و"نقلى عبد الله" و"حسين بردوز" و"وضاح محمد".. وظهر المسرح الثوري بتأسيس الفرقة المسرحية التابعة لجبهة التحرير سنة 1958م، واعتبرت نواة المسرح الوطني الجزائري اليوم،[xviii] لأن هذه الفرقة قامت بمهمتها النضالية وانحصر دورها الرئيسي في تكذيب دعايات المستدمر والدعوة إلى الثورة المظفرة.
أما التطور الحقيقي للمسرح الجزائري وميلاده الرسمي فقد كان بعد نيل الجزائر استقلالها عام 1962م حيث أعلن عن إنشاء المسرح الوطني الجزائر سنة بعد الاستقلال، وفتحت فروعه الجهوية في كل من وهران وبلعباس وقسنطينة وعنابة،[xix] وتنوعت عروضها المسرحية من التراثي إلى الاجتماعي والتاريخي إلى السياسي لتنبئ بولادة اتجاهات مسرحية متعددة عرف بها المسرح الجزائري الحديث فيما بعد، وكانت سببا في ظهور تجارب مسرحية جزائرية معاصرة كان لها موقعها بين التجارب العربية والعالمية على حد سواء.